الرهبانيَّة اللبنانيَّة المارونيَّة

صفحة تاريخية

بقلم الاب انطونيوس شبلي اللبناني

٢

تثبيت القانون الرهباني

رأى الاب قراعلي بحكمته الصائبة ان يطلب من البطريرك الدويهي اثبات القوانين الرهبانية ليتقيد الرهبان بالنذور تمكيناً لهم في دعوتهم ، فكان يسوقه من حينٍ الى حين. فلجأ عندئذٍ الى الاب حوّا ، نسيب غبطته ، والمطران جرجس بنيتين متوسلاً اليه بدموعه ليتوسط له بقبول طلبه . فرضي البطريرك واثبتها بسلطانه في ١٩ حزيران ١٧٠٠ . وعندئذٍ ابرز الاب قراعلي والشمّاس يوسف البتن وعددٌ من الرهبان النذور الرهبانية.

وما تمّ ان خاصم السيّد جرجس بنيتين ، مطران اهدن ، الاب حوّا في ديره لامورٍ انتهت الى البطريرك ، فقلق من جرّاء ذلك رهبانه ، وغادره بعضهم ، وتفارطته الهموم والاحزان ، فقنط ورجع يقيم عند الاب قراعلي غير مرتبط بنذرٍ كباقي الرهبان . واستأذن البطريرك بالسفر الى مالطة لشراء مطبعة . وحلّت قدمه اخيراً في رومة. ووكل اليه البابا اكليمنضوس الحادي عشر مهامّ متنوّعة قام بها خير قيام . ومكافأةً لخدمه للكرسي الرسولي ، وهبه دير القدّيسين بطرسٍ ومرشلّين في رومة . فتارة كان يطلب من الاب قراعلي في لبنان رهباناً يسكنون في هذا الدير ، وطوراً يعده بتخليه عنه للرهبانية . ولم تكن حيلَه لتجوز على رجلٍ سامي المدارك كالاب عبد الله . ومع ذلك وجّه اليه الاب فرحات والاب البتن وابن شقيقته الاب يوسف شاهين الرومي الملكي الاصل ، فنازعهم هناك ونكث بوعده ورجعوا الى لبنان خاسرين . وقد عرّض فرحات بالاب حوّا وحوادثه في شعره اذ قال:

بمرجلتينَ صادفنا فعالاً تُذكّرنا فعالَ المُفترينا
بانسانٍ أرانا الخبر لفظاً بلا معنىً فخلناهُ مُعينا

العلّامة السيد يوسف سمعان السمعاني

دعانا اولاً حتى حضرنا فكان من الرجال الناكثينا
وكان سحابة فينا جهاماً وخُلَّبُ برقهِ وعداً لدينا
فلا تعجبْ لشخصٍ قد تكنّى بمنى إسمٍ أمّ العالمينا
فان السيف من معناه يُكنى بثرٍ حيث كان بهِ كمينا...(١

ورُقّي الاب حوّا الى درجة الاسقفية سنة ١٧٢٣، وتوفي في رومة ١٧٥٢.

وأقل في ١٧٠٤ بدرُ المارونية الساطع ومعلي منارها ومجدّد امجادها البطريرك اسطفان الدويهي الاهدني، وقد عاده في مرضه الاخير الاب قراعلي فجاد عليه وعلى رهبانيته بالبركة ودعا لها بالنموّ والازدهار. وخلفه السيّد جبرائيل البلوزاوي، فعاش سنةً واحدة وانتقل الى جوار ربه. وعقبه السيد يعقوب عوّاد الحصروني. وخطر للاب قراعلي خاطر، وهو ان يبدل اسم الرهبانية الحلبية باسم اللبنانية، لانها أنشئت في جبل لبنان، ولما في انتسابها الى حلب ما يُشعر بروح الاختصاص. فقبل البطريرك رجاءه وبدأ يلقّب الرهبان والرهبانية ويكاتبهم بهذا الاسم، ولم تسبقها جمعية تلقّبت به في الشرق. ولنا ان نعزو اليها قول الله في الكتاب الكريم: «ويدعو عبيده باسمٍ آخر... وقبل ان يدعو أُجيب» (اشعيا ٦٥: ١٥ و ٢٤)

وسيم في السابع عشر من ايلول ١٧١٦ الاب قراعلي اسقفاً على بيروت. وطلب الاب العام، ميخائيل اسكندر الاهدني، ومدبّروه الاربعة من البطريرك يعقوب ان يُثبت قوانين الرهبانية وفرائضها التي اقرّها الدويهي سابقاً فاثبتها ثانية برقيمٍ خاص مؤرّخ في ٢٣ تشرين الثاني ١٧٢٥.

ولم تشغل المطران قراعلي مهام اسقفيته الكثيرة عن حضن الرهبانية، غرسة يده، محبّه وعطفه وعونه، وهي لم تزل بعدُ صغيرةً ضعيفةً في مهدها محتاجة الى تدبيره وعنايته الرشيدة. ورأى ببصيرته النافذة أن لا سبيل لرسوخ قدمها وصيانتها وحمايتها في الحاضر والمستقبل، ودرء المخاطر عنها، وحسم المنازعات الدائرة حولها، وتشديد عزائم ابنائها في صعود درجات الفضيلة إلّا باثبات قانونها من الكرسي الرسولي المقدّس فترجع اليه في شؤونها كلما دعت الحاجة[٢].

١) الديوان، ص ٤٤٠؛ وفي موضع آخر منه ص ٢٢١، ويريد بامّ العالمين حوّا
٢) رسالة السمعاني للرهبانية

فشمّر عن ساعد الجدّ وسعى لتحقيق هذه الفكرة ، وسافر الاب مخائيل اسكندر، رئيسها العام ، الى رومة في اواخر ايلول ١٧٢٧ ، متأبطاً كتاب القانون والفرائض والرسوم ، ومزوّداً من آباء الرهبانية ومن السيدين البطريرك وقراعلي برسائل الاستطاف والاسترحام لقداسة البابا ولامراء الكنيسة ، وكلها تضرب على نَغَمٍ واحد وهو طلب تثبيت القانون. فاجتمع هناك بصديق الرهبانية الامين ونصيرها الكبير في المكاره والشدائد ، الحبر العلّامة يوسف سمعان السمعاني ؛ وكان خبر بنفسه لدى حضوره الى لبنان فضائل رهبانها وما بَذَلته وستبذله من شتّى الخدَم الجزيلة العائدة بالفائدة على الطائفة والبلاد ، فسَنَده واعانه بعلمه ونفوذه في عاصمة الكثلكة. وبعد فحص هذه القوانين وأخذٍ وردٍّ في قضيتها تنازل البابا اقليمس الثاني عشر الى اثباتها ببراءةٍ حبريّة شريفة صدرت في ٣١ اذار ١٧٣٢ فرفعها بقوة هذه البراءة الى مقام رهبانية معروفة من الكرسي الروماني ، وانفذ الى السيّد البطريرك واساقفة الطائفة رسالتين توصيةً بهذه الرهبانية « الجزيلة التقى التي جمّلت وزانت الطائفة المارونية »[1].

عاد الاب العام مخائيل اسكندر الى لبنان بعد غياب خمس سنوات في رومة ، حاملاً الى الرهبان كتاب القانون المثبت فطابت نفوسهم سروراً لهذه البشرى مرحّبين بقدوم رئيسهم باصدق شواعر الحبّ والفرح ، ومقدّمين لله الشكر على نوال منتهى قلبهم الصالح. وتوفي الاب العام الاهدني في دير اللويزة ١٧٤٢ ، وخلّفه في الرئاسة الاب ارسانيوس عبد الاحد السرياني الاصل.

قسمة الرهبانية

ما زالت الرهبانية في مراتع السكون والطمأنينة ، ماضية في نهجها الروحي ناعمة برغد الحياة المرتكزة على اساس الالفة والاتحاد حتى سمح الله بمحنتها لسرٍّ من اسرار حكمته الغامضة ، فسرى الخلاف في صفوف رؤسائها ومرؤوسيها سنة ١٧٤٤ ، لاسباب نرى بعضها مبسوطاً في المجلّد الثاني من تاريخها. وقد رُفع امره الى المجمع المقدّس ، فأوعز الى البطريرك يوسف اسطفان

١) ذيل المجمع اللبناني ، ص ٤٤ – ٤٦ و ٥٠ – ٥٢

القسطاوي والى القاصد الرسولي لويس باتيستا بقسمة الرهبانية الى فئتين: لبنانية بلدية، وحلبيّة. فحضرا الى دير حريصا للآباء الفرنسيسيين في الثامن من كانون الاول ١٧٦٨، واستدعيا الرئيسين العامّين للفئتين، الاب عمانوئيل ابراهيم الرشماوي للبنانية، والاب لويس السمعاني للحلبية، ومدبريهما، وتمت القسمة. فاصاب الرهبان الحلبيين ستة أديار وقسماً من انطوش بيروت. والرهبان اللبنانيين أحد عشر ديراً، ما عدا اديار بلاد جبيل والبترون التي كانت بيدهم. واما دير قبرس فلم تجرِ عليه القسمة، لانه كان مهجوراً للاضطرابات التي كانت هناك. وقد انتهى الينا آخراً. وقرّر البطريرك والقاصد إعطاء الفئة اللبنانية زيادة عن الاديار المعيّنة لها من الكرسي الرسولي، دير مار الياس الراس للراهبات، ودير رشميا، ودير سيدة مجازاة لاتعابهم وقطعاً لكل نزاع في المستقبل.

وقد اذاع قداسة البابا اكليمنضوس الرابع عشر براءته بالقسمة في ١٩ تموز ١٧٧٠، ونُفذت احكامها، وجرى العمل بها وبالشروط التي عَقَدها الرئيسان العامّان. وافادنا الطيب الأثر المؤرخ الاب نعمة الله الكفري عن عدد ابناء الرهبانية جميعاً عند القسمة، وعدد المنتمين الى كلٍّ من الفئتين. فكان المجموع ٢٥١ راهباً من كهنة واخوة، وعدد الفئة اللبنانية ١٩٠ منهم ٤٣ كاهناً و١٤٨ أخاً، وعدد الفئة الحلبيّة ٦١ راهباً و١٢ مبتدئاً منهم ٣٧ كاهناً و٢٤ أخاً[1].

عادت بعد القسمة مياه السكون الى مجراها، وتوطّد السلام في كلٍّ من الرهبانيتين الشقيقتين، واندفعت كلُّ واحدة تسعى في توسيع نطاقها صاعدةً في مراقي التقدم والنجاح. فكانتا كفرسي رهانٍ تتسابقان وتتعاونان في عمل البر وفي خدمة الدين والطائفة والبلاد، تجمع بنيها اواصر الحبّ والوفاق. وها قد مضى على قسمتها مئة واثنان وستون عاماً ونيف، ولم يتعكر صفاء ودّهما ولا تزعزعت اركان حبها. وفي هذه السنة اصدرت الرهبانية الحلبية الشقيقة العزيزة نبذة منفردة جاءت فيها على مآثر ابنائها البيضاء فاكتفينا بالاشارة اليها، طالبين لها من الله اطراد الترقي بعناية قدس رئيسها العام المفضال الاب جبرائيل الشمالي المشقوتي ومدبّريه الافاضل.

١) تاريخ الرهبانية، المجلد الثاني، ص ٢٩٣